ترجمات

التاريخانية

• فريدريك بيزر •

ترجمة:

عمرو بسيوني

مركز نهوض للدراسات والنشر
NOHOUDH CENTER FOR STUDIES AND PUBLICATIONS

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٩
All rights reserved © 2019

التاريخانية (*)

• فريدريك بيزر •

ترجمة:

عمرو بسيوني

(*) Frederick Beiser, Historicism, pp 156-179; in: The Oxford Handbook of Continental Philosophy, Edited by Michael Rosen and Brian Leiter, (2007).

(*) فريدريك بيزر Frederick Beiser: ولد فريدريك بيزر ونشأ في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أنه تلقَّى تعليمه في المملكة المتحدة في كلية أوريل - بكالريوس Oriel College (B.A.)، وكلية ولفسون - دكتوراه Wolfson College (D.Phil.)، وأكسفورد. هاجر إلى ألمانيا الغربية عام (١٩٨٠م)، حيث أمضى معظم وقته من عام (١٩٨٠م) إلى عام (١٩٨٤م). وتنقَّل في وقتٍ لاحق في جميع أنحاء الولايات المتحدة، ودرَّس في سبع جامعات: بن، وإنديانا، ويال، ويسكونسن، وكولورادو، وهارفارد، وسيراكيوز. واستقرَّ حاليًا في سيراكيوز، حيث يزرع حديقته. كتب كتابيْن في الآونة الأخيرة عن فلسفة القرن التاسع عشر: التقليد الألماني التاريخاني The German Historicist Tradition (Oxford, 2009)، والمثالية الألمانية التاريخية Late German Idealism (Oxford, 2013). وقد أنهى مؤخّرًا مسودة كتاب بعنوان: أصول الكانطية الجديدة [صدر].

الفهرس:

مقدمة المترجم ٤

المقال ٦

1 - المعنى الأساسي ٦

2 - التاريخ كعلم ١٠

3 - الأهمية التاريخية والفلسفية ١٤

4 - مشكلة النسبوية ١٨

5 - أزمات التاريخانية ٢٣

6 - دراسة التاريخانية ٢٦

تقديم المترجم:

▪ لأنها من الكلمات - والمعاني - الأكثر ترددًا في حقل الدراسات الثقافية عمومًا، والدراسات الدينية في الوقت الحالي. ومع ذلك، فإن المصطلح ومع كثرة استعماله والإحالة عليه في الكتابات العربية، فإنه يبقى محاطًا بكثيرٍ من الغموض واللبس والعمومية والنسبوية التي يمكن معها توظيف المفهوم نفسه في رؤيةٍ ما وعكسِها.

▪ ومن ثَمَّ فإن اتخاذ موقف من التاريخانية، سواء بالتبنِّي أو المواجهة أو الأخذ والرد، ينبغي أن يقوم على تصور سليم ووافٍ وتاريخاني لها أيضًا - وهذه مفارقة أخرى -.

▪ فما معنى التاريخانية [أو التاريخية] بالتحديد؟ وما أبرز مبادئها؟ وما معنى أن نصف رؤيةً أو تصوُّرًا ما بأنه تاريخانيٌّ؟ وهل تستلزم الفلسفة التاريخانيةُ حَبْسَ مفهومٍ معيَّن في سياق التاريخ بحيث لا يتجاوزه؟ أم مراعاة سياق تاريخيٍّ معيَّن لفهم مفهومٍ ما؟ وهل هي مضادَّة بالضرورة للقيم المتعالية أم يمكن أن تحايثها في تصوُّرٍ ثقافيٍّ ما؟ وكثير من الأسئلة الأخرى التي يمكن أن نثيرها حول التاريخانية.

▪ ولأنَّ في التاريخانية - برأينا -، بما هي مذهب في دراسة التاريخ من جهة، وبما هي منظور وخطاب وأداة معرفية ونموذج تفسيري وتأويلي من جهة أخرى: إمكاناتٍ عديدةً يمكن استعمالُها والانتفاعُ بها في تقديم قراءات دينيةٍ أكثرَ مواكبةً لراهننا، تعرض لمشكلاتنا ولمشكلات التراث، وتفهم عواملَه التأسيسية وسياقاته وتناقضاته مع بعض ظواهر الحياة المعاصرة؛ فقد كان من اللازم ترجمة بحثٍ يتضمَّن تأريخًا فكريًّا للتاريخانية وأهم مبادئها وإشكالاتها، بما أن ذلك الاتجاه قد نشأ في الغرب أساسًا.

▪ ومن هنا تنبع أهمية الفصل المترجم لفريدريك بيزر - أحد الباحثين البارزين في مجال الدراسات الفكرية الأوروبية في عصر التنوير - حول (التاريخانية). حيث يتضمَّن ذلك الفصل تتبُّعًا مورفولوجيًّا وتاريخيًّا لمصطلح التاريخانية، من حيث نشأته، وتطوره

التاريخي. وأهم ما يتسم به هذا الفصل من هذه الناحية: هو ممارسته لفرزٍ دقيق وتفصيل بين الاتجاهات المختلفة والآراء المختلفة - إلى حدِّ التبايُن - التي اندرجت أو كانت تندرج جميعُها تحت مصطلحٍ واحدٍ هو «التاريخانية». كذلك يتضمَّن هذا الفصل ذكرَ أهم مبادئ التاريخيانية وتطبيقات هذه المبادئ، وبيان أبرز رموز التاريخانية وأعلامها وكتاباتها، والصراعات الفكرية التي رافقت تشكُّل هذا الاتجاه، في عصرٍ ازدهرت فيه فلسفة التاريخ مع وجود هيجل وماركس بطبيعة الحال. وكذلك عرض الفصلُ لأهم الإشكالات التي تواجه فلسفة التاريخانية، وهي مشكلة (النسبوية)، وناقشها من زوايا مختلفة، ليصل بالحديث عن (أزمات التاريخانية)، ويختم فصله بنقطة مهمَّة حول (دراسة التاريخانية)، بيَّن من خلالها كيفية التأريخ للتاريخانية ودراستها والمشكلات المنهجية التي قد تعترض ذلك.

▪ إن التركيز من خلال ترجمة هذا الفصل عن (التاريخانية) على قضية (الترجمة الوظيفية) لهو أمرٌ يشغل بالي كثيرًا. وأقصد به تحديدًا أن ننحو بالترجمة نحو المناهج والقضايا والجبهات الفكرية التي تمس حاجتُنا إليها. فكثيرٌ من المجالات الفكرية - سواء أكانت في الدراسات الدينية أو العلوم الإنسانية - ما زالت تعاني فقرًا منهجيًّا كبيرًا، بسبب قلَّة أو ندرة الأدبيات المنهجية التأسيسية فيها باللغة العربية، والمأمول أن تقوم حركة الترجمة بسدِّ ذلك الثَّغْر بأن تركِّز في اختياراتها على الأعمال المؤسِّسَة للمناهج والأفكار، وكذلك على أجود الدراسات الأجنبية التي تعالج القضايا والمسائل التي نحتاج إلى الاطلاع على الجديد فيها بما يعود على أدواتنا المعرفية والبحثية بالتجويد، وهي الفائدة العظمى المرجوَّة في نهاية الأمر، وليس الاتجاه بالترجمة نحو القضايا الرائجة الجماهيرية أو الكتب الأكثر مبيعًا أو الكتب الجدلية التجارية فحسب، أو التوسُّع في ترجماتٍ لا تضيف للمكتوب بالعربية شيئًا ذا بال.

والله من وراء القصد.

المقال

1 - المعنى الأساسي:

كتب فريدريش مينيكيه Friedrich Meinecke، عام (١٩٦٣م)، في مقدمته النوستاليجية لكتابه الجليل: ظهور التاريخانية Die Entstehung des Historismus أنَّ التاريخيانيةَ كانت «واحدةً من أعظم الثورات الفكرية التي شهدها الفِكر الغربي»[1]. ربما كان هناك نفحةٌ من الغلو في كلام مينيكيه. وهو خدمةٌ ذاتيةٌ بعض الشيء، فقد كان أَلِف التقليد التاريخاني وأصبح أحد المتحدثين البارزين باسمه. ومع ذلك، فيبقى أنه لا مجالَ للشكِّ في أن التاريخانية كانت واحدةً من أهم الحركات الفكرية في القرن التاسع عشر. لقد كان لها تأثيرٌ هائل في فلسفة القرنين التاسع عشر والعشرين، سواءٌ أكان للأفضل أم للأسفل. فقد نشأت كلُّ الفلسفات الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - سواء أكانت هيرمينوطيقات دلتاي، أم الكانطية الجديدة لفيندلباند Windelband وريكرت Rickert، أم ظاهراتية هوسرل، أم وجودية هيدغر - كردٍّ فعل للتاريخانية[٢].

ما هي التاريخانية؟ ليس من السهل الجواب. يعني مصطلح «التاريخانية» أشياءَ كثيرةً لكثير من الناس، وقد جرى تعريفُه من قِبل مذاهب مُتَعارِضة. يمكننا أن نتجنَّب بعضَ الجدل، وأن نعطي المصطلح تعريفًا عمليًّا على الأقل: إذا عرَّفنا التاريخانية لا على أنها مذهب، ولكن برنامج. لقد كان لهذا البرنامج، الذي نشأ في منتصف القرن الثامن عشر وامتدَّ طيلة القرن التاسع عشر؛ هدفٌ بسيط ولكنه طموح: إضفاء الشرعيةِ على التاريخِ كعِلْمٍ. لقد أراد التاريخانيون أن يتمتَّع التاريخُ بالمكانة نفسِها والمكانة نفسها التي للعلوم الطبيعية، إلا أنهم زعموا أن لديه أهدافه وأساليبه ومعايير المعرفة الخاصة به، التي تختلف عن تلك التي للعلوم الطبيعية. فقط كانت هذه الأهداف والأساليب موضوعَ نزاع، ولكنْ اتُّفِق بشكل عامٍّ على أنها غير قابلة للاختزال إلى تلك الخاصة بالعلوم الطبيعية، وأنه ينبغي أن تكون متميِّزة عن تلك الموجودة في الميتافيزيقا.

---

(1) Friedrich Meinecke, Die Entstehung des Historismus (Munich: Oldenbourg, 1965), 1 (vol. iii of Werke, ed. Hans Herzfeld, Carl Hinrichs and Walther Hofer)..

(٢) حول أهمية التاريخانية بالنسبة إلى هؤلاء المفكرين، انظر:

Charles Bambach, Heidegger, Dilthey, and the Crisis of Historicism (Ithaca: Cornell University Press, 1995)..

جرى التعبيرُ عن هدف التاريخانية في بعض الأحيان على أنه مطالبة بالاستقلالية: يجب أن يتمتَّع التاريخُ بالحكم الذاتي، ويتبع قواعده ومعاييره الخاصة، ولا يجوز التسامح مع التدخُّل الخارجي، سواء أكان من سلطة سياسية أم دينية أو أي نوعٍ آخر من فروع المعرفة[٣]. كان خطر التدخُّل يأتي أولًا من الميتافيزيقا، من الأنظمة المثالية الكبرى لفيشته، وشيلينج، وهيجل، التي هدَّدت بجعل التاريخ مجرَّد خادم للفلسفة. وبعد تراجع المثالية في أربعينيات القرن التاسع عشر؛ جاء الخطر من الوضعية، التي جعلت معايير العلوم الطبيعية وأساليبها غايةً نهائيةً لكل الحياة الفكرية. لذلك كان على التاريخانية أن تخوض معركتيْن متتاليتين: الأولى قبل أربعينيات القرن التاسع عشر ضد الميتافيزيقا، ثم بعد أربعينيات القرن التاسع عشر ضد الوضعية.

من هم التاريخانيون؟ إذا عرَّفنا التاريخانية من خلال هذا البرنامج؛ فمن السهل تعريفهم. لقد كان التاريخانيون البارزون في القرن التاسع عشر، العصر المناسب للتاريخانية؛ هم: بارتولد جورج نيبور arthold Georg Niebuhr (١٧٧٦ -١٨٣١)، وليوبولد فون رانكي Leopold von Ranke (١٧٩٥–١٨٨٦)، ويوهان جوستاف دروسن Johann Gustav Droysen (١٨٣٨-١٩٠٨)، وويلهلم دلتهي Wilhelm Dilthey (١٨٣٣–١٩١١)، وجاكوب بوركهاردت Jacob Burckhardt (١٨١٨-١٨٧٩)، ومؤسسو المدرسة التاريخية في القانون: فريدريش سافيني Friedrich Savigny (١٧٧٩-١٨٦١)، وكارل فريدريش إيشهورن Karl Friedrich Eichhorn (١٧٨١-١٨٥٤). كان التاريخانيون الرئيسون في القرن الثامن عشر، الذين صاغوا البرنامج أول مرة؛ هم: جي. إيه. شلادينوس J. A. Chladenius (١٧١٠ -١٧٥٩)، وكريستوف غاتيرر Christoph Gatterer (١٧٢٧-١٧٩٩)، وجاكوب فيغلين Jacob Wegelin (١٧٢١-١٩١). كان هناك أيضًا العديد من الآباء الروحيين للتاريخانية، والمفكرين، الذين كانوا محوريين في تكوين أساليبها وأفقها، رغم أنهم لم يدعموا أجندتها صراحةً. كان منهم: يوهان جورج هامان Johann Georg Hamann (١٧٣٠-١٧٨٨)، ويوهان جوتفريد هيردر Johann Gottfried Herder (١٧٤٤-١٨٠٣)، وفيلهلم

(٣) انظر على سبيل المثال:

Ranke, 'Idee der Universalhistorie' (1831–2), in Vorlesungens-Einleitung: Aus Werk und Nachlass, ed. Walther Fuchs and Theodor Schieder (Munich: Oldenbourg, 1975), iv. 74, 76; and Droysen, Historik: Vorlesungen über Enzyklopädie und Methodologie der Geschichte, ed. Rudolf Hübner (Munich: Oldenbourg, 1937), pp. 3–4; and Dilthey, Einleitung in die Geisteswissenschaften, in Gesammelte Schriften, ed. Bernhard Groethuysen (Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht, 1966), vol. i, pp. xv–xvii.

فون هومبولت Wilhelm von Humboldt (١٧٦٧-١٨٣٥)، وجوستوس موزر Justus Möser (١٧٢٠-١٧٩٤)، و إيه. دبليو. ريبيرج A. W. Rehberg (١٧٥٧-١٨٣٦).

ماذا عن هيجل وماركس؟ ألم يكونا تاريخانيَّيْنِ أيضًا؟ بالنسبة إلى العديد من الباحثين، فإن هيجل وماركس هما في الواقع نموذجان للتاريخانية. فرغم كل شيء، فقد شاركا التاريخانيةَ أجندتَها: كانا يريدان أن يكون التاريخُ عِلْمًا، وقد عارضا أيضًا الطبيعانية naturalism (على الأقل بالمعنى الوضعي). ومع ذلك، فمن المهم أن ندرك أن معظم التاريخانيين البارزين كانوا ينتقدون هيجل وماركس بشدَّة، حيث وجدوا فلسفتَهما في التاريخ ميتافيزيقيّةً. لقد رفض كلٌّ من رانكي Ranke، ودروسن Droysen، وبوركهاردت Burckhardt، وديلتهي Dilthey: فلسفةَ التاريخ ككلٍّ، سواءٌ أكانت هيجلية أم ماركسية؛ لأنهم اعتقدوا أنها نظريةٌ جدًّا، ومتعالية على حدود الخبرة النهائية لجميع العلوم الملائمة. وفي سنواتهم الأولى رأوا في هيجل عدوَّهم الرئيس، وكانوا يرون أن التاريخ يمكن أن يصبح علمًا فحسب إذا ابتعد عن أحضان الهيجلية. وفي وقتٍ لاحق أصبح كونت والوضعيون في الموضع نفسه[٤]. ومن ثَمَّ فعلى الرغم من كل أهميتهما التاريخيانية؛ فإن هيجل وماركس خارجَ الحركة التاريخانية الملائمة.

وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تعريف التاريخانية من خلال مذهبٍ معيَّن، أو رؤية كونية معينة؛ فإنه يمكننا أن ننسب إليها بعضَ المبادئ الأساسية. إن هذه المبادئ متأصِّلَة في برنامج التاريخانية، ومفهومة ضمنيًّا في محاولته لجعل التاريخ علمًا: فهي جزء من التصور التاريخاني لأساليب المعرفة التاريخية ومعاييرها وأهدافها. أكَّد التاريخانيون على استقلالية العالم التاريخي، وذلك بالتطابق مع إيمانهم باستقلالية المعرفة التاريخية. ووفقًا لهذا المبدأ، يجب تفسير كل ما يحدث في التاريخ؛ في التاريخ ووفقًا للظروف التاريخية المحددة. يستبعد هذا المبدأُ مبدأيْن بديلين: الميتافيزيقا: أي شرح الأحداث بواسطة أهداف خارج التاريخ، مثل غايات العناية الإلهية؛ والطبيعانية: أي شرح الأحداث التاريخية كجزء من الطبيعة ووفقًا لأساليب العلوم الطبيعية. ومن ثَمَّ فإن التاريخانية نظيرٌ للطبيعانية: فتمامًا كما تؤكِّد الطبيعانية أن كل حدثٍ

---

(٤) ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن ديلتهي ودرويسين كليهما كان مدينًا بفضلٍ كبير لهيجل، وقد أقرَّا بذلك في سنواتهما الأخيرة. كان دَيْنهما الرئيس هو مفهوم هيجل عن الروح الموضوعية، أي: الرأي الذي يقول إن التجسُّد المميز للعقل هو في المؤسسات الاجتماعية والسياسية. كان درويسين طالبًا مقرّبًا من هيجل، وحضر العديد من محاضراته في برلين، وكان كتاب ديلتهي: تاريخ الشاب هيجل Die Jugendgeschichte Hegels, Gesammelte Schriften Band IV؛ أمرًا حاسمًا لإحياء الهيجلية في أوائل القرن العشرين.

في الطبيعة يمكن تفسيرُه وفقًا لأساليب العلوم الطبيعية؛ فكذلك تؤكِّد التاريخانية أن كل ما يحدث في التاريخ يمكن تفسيرُه وفقًا لأساليب التاريخ. ترفض الطبيعانية والتاريخانية كلاهما الرجوعَ إلى التعالي أو الفائقية، أي: محاولات تفسير شيءٍ ما في الطبيعة أو التاريخ بشيءٍ خارج نطاق الطبيعة أو التاريخ. ولكن بالنسبة إلى التاريخاني، فإن الطبيعة والتاريخ ليسا بمتشابهيْن. فعلى الرغم من أن التاريخ قد يقع في الطبيعة، فإنه لا يمكن اختزاله فيها. ينكر التاريخانيون أنه بإمكاننا أن نفهم الخصائص المميزة للأحداث التاريخية بمصطلحات الطبيعة، أي وفق قوانين السبب والنتيجة التي تسيطر على العالم المادي. لم يكونوا ثنائيين ميتافيزيقيين: لم يثبتوا الفرق بين العقلي والمادي، وفي الواقع لقد أصروا على أنه لا يمكن الفصل بين الجوانب العقلية والمادية للإنسانية، ومن ثَمَّ فهي متلازمة. ومع ذلك، فقد كانوا ثنائيي المنهجية: فرأوا أن أساليب التاريخ تختلف عن أساليب العلوم الطبيعية. فعلى الرغم من أن هذه الأساليب لا تكشف عن عالم مستقلٍّ من المواد يتعذَّر الوصول إليها في العلوم الطبيعية، فإنها على الأقل قد شرحت جوانبَ من الفعل البشري لا يمكن اختزالها إلى صيغ التفسير الطبيعية.

ثمة مبدأ تاريخاني أساسي آخر، وهو أن كلَّ شيء في العالم الإنساني - الدولة والمجتمع والأخلاق والأدب والعلوم - هو جزءٌ من التاريخ. يبدو هذا المبدأ تافهًا - من الواضح أن الأعمال الإنسانية تحدث في الزمن -؛ إلا أن التاريخانيين قد أضفوا عليه معنًى أعمقَ. فقد كان ذلك يعني، أولًا: أن جميع القيم والنُّظُم الإنسانية تتغير، بحيث إنه لا يوجد شيء أبديٌّ في العالم الإنساني. هذه النقطة موجَّهة ضد ميلنا الطبيعي إلى إضفاء الصبغة الأبدية على قيمنا ونظمنا، كما لو كانت حقيقة للإنسانية عمومًا وفي كل وقت: يذكّرنا التاريخانيون أن جميعَ القيم والنظم نتاجُ الزمان والمكان، وأنها أيضًا ستختفي في التاريخ. وكان ذلك يعني ثانيًا: أنه يجب فهم كل شيء في العالم الإنساني في سياقه الاجتماعي التاريخي المحدد. يؤكِّد التاريخانيون على جذرية السياق-التبعي لجميع الظواهر الاجتماعية-التاريخية، أي إنهم اعتقدوا أنه لا وجود لها من دون سياقها المحدد، بحيث إن هويتها قد تتغير في سياق مغاير. وهذه النقطة موجَّهة ضد ميلنا الطبيعي إلى افتراض كون الظواهر الاجتماعية-التاريخية كما لو كان لها هوية مستقلَّة عن سياقها؛ يعلِّمنا التاريخاني أننا كلما أصبحنا أكثر واقعية، أي كلما تعرفنا أكثر إلى موضوعنا؛ وجدنا أن هويته تعتمد على سياقه. إن استقلالية العالم التاريخي-الاجتماعي، والتاريخانية التامة لعالم الإنسان: هما المبدآن الأساسيان للتاريخانية. وبشكل أو بآخر سيجري التوكيد عليهما صراحةً أو ضمنًا من قِبل جميع التاريخانيين الرئيسين، بمن فيهم هيجل وماركس والمثاليين الألمان. ومن ثَمَّ فإن مزيدًا من التعميمات سيكون مجازفةً. كلما ازدادت

المبادئ التي نضيفها؛ ازدادت التفاصيل التي نقدِّمها، وازدادت احتمالية فقداننا دعوى التعميم. ولتوضيح مدى المجازفة في ذلك، فلنفكِّر في المثال التالي. قد يعتقد المرء أن موضوعية المعرفة التاريخية هي مبدأ تاريخانيٌّ مركزيٌّ. فمهما يكن من شيء، فقد كان التاريخانيون يدَّعون الوضعَ العلمي لتخصُّصِهم المعرفي، والمعرفةُ الموضوعية واحدة من الخصائص الرئيسة للعلم. إلا أن إمكانية المعرفة التاريخية الموضوعية كانت واحدةً من أكثر القضايا إثارةً للجدل داخل الدوائر التاريخانية. ففي حين أصرَّ رانكي Ranke ومدرستُه على هذه المعرفة الموضوعية؛ فقد عارض دروسن Droysen والتاريخانيون البروسيون بشدَّة إمكانِيَّتَها، مُطالبين بأن يكتب المؤرخ من وجهة نظره الأخلاقية والسياسية الخاصة[٥]. كان كلٌّ من رانكي ودروسن من التاريخانيين بقدر ما دافعوا عن الوضع العلمي للتاريخ، ومبدأي الاستقلال الذاتي للتاريخ وتاريخانية العالم البشري. ومع ذلك، فقد كان لديهم وجهات نظرٍ مختلفة جذريًّا حول ما يجب أن تكون عليه المعرفة العلمية. يجب أن يكون أي تعريف مناسب للتاريخانية عامًّا بما يكفي لاستيعاب اختلافات هذا الاتجاه.

2 - التاريخ كعلم:

كانت أجندة التاريخانية لجعل التاريخ علمًا بمثابة ردٍّ فعل ضد إرثٍ قديم وقوي. فمنذ العصور الكلاسيكية عانى التاريخُ من عُقدة دونيَّة حادة، وهي مشكلة خطيرة في الشرعية. فلم يَبْدُ أن التاريخ يستحقّ لقبَ العلم الذي مُنح للفلسفة والرياضيات. فبما أنَّ العلم يتطلب معرفةً كليةً وضرورية، وبما أن التاريخ لا يتناول إلا أحداثًا جزئية وعارضة؛ فإن التاريخ لا يستطيع أن يحقِّقَ نوْعَ المعرفة التي تُشتَرَطُ في العلم. وعلى هذه الأسس وضع أرسطو التاريخَ حتى تحت الشعر كشكل من أشكال المعرفة[6]. ففي حين أن المؤرخ كان يمكنه فحسب أن يقول ما فعله شخصٌ معيَّنٌ في وقتٍ معيَّنٍ فيمكن الشاعِرَ على الأقل أن يخبرنا عن شيء أكثر كليةً: ما الذي سيفعله نوعٌ معيَّن من الأشخاص في ظل ظروفٍ معينة.

---

(٥) لقد أعلن رانكي إعلانه الشهير عن فكرته النموذجية حول الموضوعية عندما كتب أن المؤرخ يجب أن يقول ببساطة «كيف حدث شيءٌ ما بالفعل». انظر: مقدمة كتابه Geschichte der romanischen und germanischen Völker von 1494 bis 1535, in Sämtliche Werke (Leipzig: Duncker & Humblot, 1868–90), XXX–XXXIV, p. vii. وردّ درويسين الشهير في كتابه: Historik أن نموذج الموضوعية المثالية لرانكي مناسب فقط للخصي، انظر كتابه: Historik, p. 287.

(6) Poetics 1451a36 and Metaphysics A981a.

عـانى التاريـخُ ضـدَّ الوصمـة جيـدًا في عـصر التنويـر. فقـد جـرى إحيـاءُ التفريـقِ القديـم بـين التاريـخ والعلـوم مـن خـلال الإبسـتمولوجيا العقلانيـة لليبنتـز وولـف، التـي أبقـت المـؤرخَ مقيَّـدًا بقـوة في أعـماق كهـف أفلاطـون. فتماشـيًا مـع البراديغـم القديـم؛ علَّـم لايبنتـز و وولـف أنـه يُشـترط في العلـوم أن تكـون كليـةً وضروريـة، في حـين أن التاريـخ يقبـع في مجـال الجزئيـة والعرضيـة[٧]. إن المعرفـة التاريخيـة المشـتركة هـي أدنى درجـةٍ مـن المعرفـة، كـما كتـب وولـف مـرةً؛ لأنهـا تعتمـد عـلى الحـواس، ولا تعطينـا أيَّ تبـصُّرٍ في أسـباب الأشـياء[8]. ومـن ثَـمَّ فيبـدو أن هنـاك فجـوةً بـين عالمـي العلـم والتاريـخ. ومـن ثَـمَّ سيشـتهر ليسـنج Lessing، الـذي نشـأ في التقليـد العقـلاني لاحقًـا، بمـا كتبـه عـن: «الخنـدق العريـض والقبيـح» بـين التاريخـي والعقـلاني. «لا يمكـن للحقائـق العرضيـة للتاريـخ أبـدًا أن تُصبـح دليـلًا عـلى الحقائـق الضروريـة للعقـل»[9].

بـدأت محاولـة إضفـاء الشرعية على التاريخ كعلـمٍ في منتصف القرن الثامن عـشر. فقد أصبح بعض المفكريـن مثل جي. إيه. شـلادينوس J. A. Chladenius، وكريسـتوف غاتـيرر Christoph Gatterer، وجاكـوب فيغلـين Jacob Wegelin[١٠]، الذيـن درسـوا جميعًـا في تقليـد ليبنتز-وولـف؛ مسـتائين مـن عقلانيتـه الضيقـة، لأسـبابٍ ليس أقلَّهـا أنها تنكر الوضعَ العلمـيَّ للتاريخ. وعلى الرغم مـن إدراكهم أن التاريـخ لا يمكـن أن يحقِّـقَ اليقـينَ المبرْهَـنَ للرياضيـات؛ فإنهـم أصروا أن التاريخ لا يزال شـكلًا محددًا مـن المعرفـة في حـدِّ ذاتـه. لقد قبلوا المذهـبَ العقلاني الذي يقـول إن هناك اختلافًـا جوهريًّا في النوع بـين التاريـخ، والعلـوم الطبيعية التي تسـتخدم المنهـجَ الرياضي والبراديغـمَ الميكانيكيَّ للتفسـير. لكنهم لم يوافقـوا عـلى أن كلَّ المعرفـة يُشـترط فيهـا الكليـةُ والضروريـةُ، أو أنَّ الشـكلَ الوحيـد للعلـوم هـو الرياضيات. فمن وجهة نظرهم كان للتاريخ معاييرُ وأسـاليبُ المعرفة الخاصة به، التي لا تقل اشـتراطًا

---

(٧) انظر:

Leibniz, Novus methodus discendae docendaeque jurisprudentiae § 32, in Sämtliche Schriften und Briefe, ed. Prussian Academy of Sciences (Darmstadt: Reichl, 1930) VI/1, 284; and Wolff, Philosophia rationalis sive logica § 7, in Gesammelte Werke, ed. J. Ecole et al. (Hildesheim: Olms, 1968), II/1, 3.

(8) Wolff, Philosophia rationalis § 22, Werke II/1, 10.

(9) Lessing, 'Beweis des Geistes und der Kraft', in Werke und Briefe (Frankfurt: Deutsche Klassiker Verlag, 1989), viii. 441.

(١٠) حول هؤلاء المفكّرين ودورهم في تطور التاريخانية، انظر:

Peter Hanns Reill, The German Enlightenment and Rise of Historicism (Berkeley: University of California Press, 1975), 100–26.

وصرامةً عن تلك الخاصة بالعلوم الطبيعية. ففي حين أنَّ منهجيةَ العلوم الطبيعية ميكانيكيةٌ ورياضية؛ فإن منهجية التاريخ شمولية وتأويلية. يحاول العالِم الطبيعي أن يكتشف من خلال قوانين العقل التي تجري في جميع الأوقات والأماكن؛ في حين أن المؤرخ يحاول سبر الأغوار من خلال الحدس الفريد والفردي. فكانت مهمَّة العلم معرفةَ الفردي والفريد بقدر ما هو كلّي وموحَّد.

افتتح ظهورُ المثالية الألمانية نحو نهاية القرن الثامن عشر فصلًا مختلفًا تمامًا في محاولة شرعنة التاريخ كعلم. تبنَّى فشته Fichte وشيلينغ Schelling وهيجل استراتيجيةً مختلفة تمامًا عن استراتيجية شلادينوس وغاتيرر وفيغلين. ففي محاولةٍ للقفز على خندق ليسنج القبيح؛ فقد قالوا إنه من الممكن تحديد القوانين العامة للتاريخ على أساس العقلِ نفسِه. ففي حين يوافق فشته وشيلينغ على وجود اختلافاتٍ جوهرية بين معايير التاريخ وأساليبه وتلك الخاصة بالعلوم الطبيعية؛ فإنهما يرفضان رأي ليبنتز-وولف أن العقل ليس له أيُّ مكان في التاريخ. فالعقل يمكن أن يكتشف القوانينَ الكليةَ والضرورية للتاريخ كما يفعل بالنسبة إلى الطبيعة، على الرغم من أن هذه القوانين ليست ميكانيكية ورياضية ولكنها غائية وتأويلية. ومن هنا يصوغ فيشته وشيلينغ وهيجل فلسفةَ التاريخ التي تحاول تحديدَ الغايةِ العامة لتاريخ العالم في حدِّ ذاتِه على الأقل. إنهم يرون التاريخ على أنه إنجازٌ لخطَّة، تحقيقٌ لفكرة، كما لو كان روايةً أو دراما.

على الرغم من أن المثاليين الألمان قد قدَّموا الكثير لتقدُّم قضية التاريخ؛ فإن التاريخانيين لم يشاركوهم تصوُّرَهم للأسلوب التاريخي. ففي عشرينيات القرن الثامن عشر في برلين، كانت هناك مناوشاتٌ قائمة بالفعل ومستمرة بين الحزب «التاريخي» و«الفلسفي»، أي بين نيبور Niebuhr، ورانكي، وسافيني Savigny، من جهة، وهيجل ومدرسته من الجهة الأخرى[11]. كان للتوتر بينهما علاقة كبيرة بالمنهجية التاريخية. استخدمت المدرسة الفلسفية منطقًا ديالكتيكيًّا [جدليًّا] لتطوير مفهومٍ غائيٍّ لتاريخ العالم، في حين شدَّدت المدرسة التاريخية على أهمية اتباع طريقة تجريبية صارمة، وارتابت في صحَّة الغائية ككل. اتهم المؤرخون المدرسةَ الفلسفية بإحياء المنهجية القديمة للإسكولائية [الفلسفة المدرسية]، التي كانت على النقيض تمامًا مع الإجراءات التجريبية لجميع العلوم. ومع الإدراك المتأخر تبدو الصلات بين هذه الأحزاب أكبر بكثير من خلافاتهم، فقد اتفقوا جميعًا على المبادئ الأساسية للتاريخانية، وعلى أهمية جعل التاريخ علمًا. ولكن، كما هو الحال في السياسة، فكذلك في المجال الأكاديمي: كلما كانت الاختلافات أكثر دقَّة؛ زادت حدَّة الخلافات.

(١١) للحصول على سرد قيِّم لهذه المناوشات، انظر:
rnst Simon, 'Ranke und Hegel', in Beiheft der Historischen Zeitschrift 15 (Munich: Oldenbourg, 1928), 16–119.

في نهاية المطاف، انتهت المعركة لصالح التاريخانيين. فمع انحدار النزعة الهيجلية في القرن التاسع عشر كان هناك رد فعل تجاه الفلسفة النظرية ككل، التي كانت أساليبها تعتبر نظاميةً أكثر من اللازم، واستنتاجية للغاية، وقبلية جدًّا، بالنسبة إلى العلم التجريبي الموثوق والدقيق[١٢]. وحرصًا على استمرار إرث نيبور وسافيني ورانكي؛ فقد حافظ الجيل الجديد من التاريخانيين - دروسن Droysen، ودلتهي Dilthey، وبوركهاردت Burckhardt - على العداء القديم مع الفلسفة النظرية. واتباعًا لأسلافهم فقد تحالفوا مع العلماء التجريبيين في التشديد على أهمية التحقيق التجريبي المجزّأ، والحاجة إلى استبعاد جميع الافتراضات الميتافيزيقية. لقد شبّهوا فلسفة التاريخ بفلسفة الطبيعة Naturphilosophie التي فقدت مصداقيتها الآن تمامًا. رفض كلٌّ من درويسن ودلتهي وبوركهارت تعميمية المقاربات القبلية لفلسفة التاريخ، والتي اعتبروها غير ملائمة لفردانية الظواهر التاريخية. وحيث إن كل ثقافة أو عصر هو فريدٌ من نوعه، كما جادلوا؛ فإنه من المستحيل إجراء تعميماتٍ موثوقة على جميع الثقافات والعصور. إذا تعاملنا مع كل ثقافة أو عصر كغاية في حدِّ ذاته، كما يتطلب التأريخ السليم؛ فإنه لا يمكننا أن نراها ببساطة على أنها مجرد مرحلة في تطور العقل أو الفكرة. ومن ثمَّ أعاد الجيل الجديد من التاريخانيين التأكيد على الثنائية التقليدية بين التاريخ والعقل، وعادوا إلى التقليد السابق لكلٍّ من شلادينوس Chladenius، وغاتيرر Gatterer، وفيغلين Wegelin. وشددوا، على غرار أسلافهم - على أن التاريخ عرضي بشكل متأصِّل وجزئي، وأنه لا يمكن أن يفي بالقوانين الكلية والضرورية الموجودة في العلوم الطبيعية. ومع ذلك، فقد استمروا في الاعتقاد بأن التاريخ لا يزال من الممكن أن يكون علمًا؛ لأنه يحتوي على معايير وأساليب خاصة به، والتي لا تقل تجريبية عن تلك الخاصة بالعلوم الطبيعية. تظهر أكثر الجهود صرامةً ومنهجية لصياغة هذه المعايير والأساليب في عمل درويسن ودلتهي في أواخر القرن التاسع عشر[١٣].

---

(١٢) حول رد الفعل ذلك، انظر:

Herbert Schnädelbach, Philosophy in Germany, 1831–1933 (Cambridge: Cambridge University Press, 1984), 66–108.

(١٣) الأعمال الحاسمة هي كتاب: Historik لدوريسين، وكتاب ديلتهي: مقدمة في العلوم الإنسانية Einleitung in die Geisteswissenschaften. تجدر الإشارة إلى أن هذه الأعمال لم يكن لها تأثير كبير في القرن التاسع عشر؛ لأنها إمَّا لم تكن منشورة، وإمَّا غير مكتملة. لم ينشر كتاب Historik لدوريسين، الذي يستند إلى محاضرات ألقيت في الفترة من عام (١٨٥٧م) إلى عام (١٨٨٣م)؛ حتى عام (١٩٣٧م) (انظر رقم (٣) السابق). كان الكتاب معروفًا فحسب في صورة ملخص موجز: Grundriss der Historik، نشره دوريسين نفسه عام (١٨٦٨م). وكانت مقدمة ديلتهي غير مكتملة. ظهر المجلد الأول منها عام (١٨٨٣م)، والمجلد الثاني، المخطط له، والذي كان يهدف إلى معالجة الأسس الفلسفية للعلوم الاجتماعية-التاريخية؛ لم يكتمل على الإطلاق. كل ما تبقى هو مجموعة من الشذرات، التي هي في المجلدين السابع والتاسع عشر من مجموع كتاباته: volumes vii and xix of the Gesammelte Schriften.

أدّى تراجع المثالية في أربعينيات القرن التاسع عشر إلى القضاء على عدوٍ واحد من أعداء التاريخانيين. لكن سرعان ما ظهر عدوٌّ أكبر، أعطى أجندة التاريخانيين مزيدًا من الاعتبار والإلحاح خلال معظم القرن التاسع عشر. ففي عام (١٨٨٤م)، وفي الطبعة الثانية من كتابه: العالم إرادة وتمثُّلًا Die Welt als Wille und Vorstellung أضاف شوبنهاور قسمًا عن التاريخ، وهاجم فيه إمكانية أن يكونَ التاريخُ علمًا[14]. كان هجوم شوبنهاور مثيرًا للاهتمام من وجهة نظر تاريخية؛ لأنه يعود إلى التقاليد القديمة التي كافحها التاريخانيون طيلة الوقت. فقد أعاد شوبنهاور التأكيد على النموذج العقلاني الكلاسيكي للعلم، ولاحظ كيف أن التاريخ لا يرقى إلى هذا المستوى المثالي. وبما أن التاريخ يتعامل مع الفرد، وبما أن العلم يتطلب معرفة كلية وضرورية؛ فإن مصطلح «علم التاريخ» هو تناقضٌ في المصطلحات. كذلك أكَّد شوبنهاور أن جميع المعارف التاريخية مشروطةٌ بوجهة نظر المشاهد، وتفتقر إلى الموضوعية المطلوبة في العلوم. لقد أعاد نقد شوبنهاور ببساطةٍ المثالَ القديم للعلوم، الذي تمرَّدت عليه التاريخانية، ومع ذلك، فإن هجومه كان لا يزال فعَّالًا بسبب التأثير المتنامي لفلسفته بعد منتصف القرن[15]. كان هذا هو السلف للهجوم اللاحق الذي قام به نيتشه على «الثقافة التاريخية» في القسم الثاني من كتابه: تأملات في غير الأوان Unzeitgemässe Betrachtungen [16].

3 - الأهمية التاريخية والفلسفية:

حتى الآن قد يبدو الأمر كما لو أن التاريخانية لا تعني أكثرَ من منهجية للتاريخ، وعلى وجه التحديد ما إذا كان للتاريخ معاييره الخاصة وأساليبه، بمعزل عن العلوم الطبيعية. لكنَّ مثلَ هذا الانطباع مضلِّل. فعلى الرغم من أن التاريخانية قد بدأت بالفعل كردٍّ فعلٍ على هذه القضية، فإنه سيكون من الخطأ الجسيم التقليل من أهميتها إلى مسألة المنهجية التاريخية وحدها. إن الآثار المترتبة على التاريخانية في الإبستمولوجيا، والأخلاق، والسياسة؛ عميقةٌ بقدر ما هي واسعة.

---

(14) Schopenhauer, 'Ueber Geschichte', Kapitel 38 in Die Welt als Wille und Vorstellung, Sämtliche Werke(-Frankfurt: Insel, 1968), ii. 563–73.

(15) Schnädelbach, Philosophy in Germany, 60.

(16) Nietzsche, Sämtliche Werke, Kritische Studienausgabe, ed. G. Colli and M. Montinari (Berlin: de Gruyter, 1980), i. 248–334.

إن إحدى أهم نتائج النقاش حول الأسلوب التاريخي هي أنها سرعان ما تطوّرت إلى السؤال الأوسع حول المعايير والأساليب لدراسة المجتمع والثقافة بشكل عام. وبالنسبة إلى معظم المفكّرين الألمان في القرنين الثامن والتاسع عشر؛ كان التاريخ براديغمًا لكل العلوم الاجتماعية أو الدراسات الإنسانية. فإذا كانت أساليبه متميزةً عن العلوم الطبيعية؛ فإنه يمكن أن تكون الحالة نفسها مع العلوم الاجتماعية والثقافية الأخرى. ولذا فقد أثارت مسألة الأسلوب التاريخي المشكلةَ الأكثر عمومية للأسس الفلسفية لجميع الدراسات الاجتماعية والثقافية، وما إذا كانت أساليبها مختلفة جوهريًّا في نوعها عن أساليب العلوم الطبيعية. جرى تعميم هذه المشكلة لأول مرة مِن قِبل ديلتهي، الذي تساءل، في كتابه: مقدمة في العلوم الإنسانية Einleitung in die Geisteswissenschaften (١٨٨٣م) حول تأسيس «Geisteswissenschaften»، أي ما يمكن ترجمته بشكل فضفاض على أنه الدراسات الإنسانية أو العلوم الإنسانية. أعطى ديلتهي التاريخَ موقعَ الصدارة من بين هذه العلوم، إلا أنه ضمَّن بوضوحٍ أيضًا الاقتصاد والقانون والأدب وعلم الجمال.

تذهب تداعياتُ التاريخانية أبعدَ من ذلك بكثير. فبالنظر من تصور تاريخيٍّ أوسع؛ تساءلت التاريخانية حول البحث المستمر في الفلسفة الغربية للعثور على مسوِّغات متعالية للقيم الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، أي السعي لإعطاء هذه القيم الدعم أو المصادقة، من خارج أو وراء السياق الاجتماعي والثقافي الخاص بها. يمكن أن تكون هذه المسوغات دينيةً بشكل مباشر، أي: العناية الإلهية، أو يمكن أن تكون علمانية، أي: القانون الطبيعي أو العقل البشري. وفي كلتا الحالتين أثارت التاريخانية تساؤلات حول صحَّة هذه المسوغات.

تُقاس الأهميةُ التاريخية للتاريخانية بشكل أفضل بواسطة قَطْعِها مع عصر التنوير، الذي هيمن على الحياة الفكرية الأوروبية خلال القرن الثامن عشر. ارتفع نجم التاريخانية مع أفول التنوير. ولم تكن التاريخانية هي التيار الفكري الوحيد الذي هاجم التنوير، إلا أنها كانت الأكثر فعالية. إذ كانت الهجمات الريبية والدينية على التنوير متقطعةً وعابرة، في حين كانت انتقادات التاريخانية ثابتةً ودائمة، واستمرت آثارها بشكل جيد في القرن التاسع عشر. وبينما بدت الهجماتُ الدينية مؤقتةً بتقدُّم العلوم؛ كان النقد التاريخاني أكثر إثارة للقلق لأنه بدا أنه جاء من تقدُّم العلوم.

كانت المشكلة العامة مع التنوير، من وجهة نظر التاريخانية؛ هي أنه ظلَّ مدينًا لتراث العصور الوسطى، الذي يتظاهر بالتغلُّب عليه. كان علم لاهوت العصور الوسطى يتطلب

دائمًا مصادقةً متعالية على جميع القيم الاجتماعية والسياسية والأخلاقية. وعلى الرغم من أن التنوير قد أزال الزخارف الدينية لمثل هذه المصادقة المتعالية؛ فإنه استمرَّ في البحث عنها بمصطلحاتٍ أكثر دنيوية، سواء أكانت القانون الطبيعي، أم العقد الاجتماعي، أم العقل الإنساني الكلي، أو الطبيعة الإنسانية الثابتة. يبدو أن جميع هذه المفاهيم تَعِدُ بصحَّةٍ تتجاوز سيرورةَ التاريخ، وهي مصادَقةٌ تتعالى على السياق الملموس للثقافة والسياسة والمجتمع. أراد جميع مفكّري عصر التنوير - الفلاسفة الفرنسيين، والتنويريين الألمان Aufklärer، والمفكرين الأحرار الإنجليز - إيجاد نظرة أرخميدسيّةٍ أبدية وكلية، يمكنهم من خلالها الحُكم على جميع المجتمعات والدول والثقافات الخاصة. إن أعمق الآثار المترتبة على التاريخانية، هو أن مثل هذه النظرة لا يمكن أن توجد.

إن الادعاء بأن الأهمية التاريخية والفلسفية للتاريخانية ترتكز على القطع مع عصر التنوير، بالنسبة إلى العديد من المؤرخين المعاصرين؛ هو ترديدٌ لأسطورة قديمة. يقول هؤلاء الباحثون إن التاريخانية نشأت من التقاليد التأريخية داخل عصر التنوير، وأظهروا كيف أن العديد من أساليب التاريخانيين اللاحقين ومعاييرهم كانت واضحةً بالفعل لدى كتَّاب القرن الثامن عشر في إطار تقليد التنوير[17]. لقد كان الهدف الرئيس لانتقادهم هو مينيكيه Meinecke، الذي كان يضاد باستمرار بين التاريخانية وعصر التنوير. لقد رفضوا براديغم مينيكيه على أنه مبسط ومضلل، ودعوا بدلًا من ذلك إلى رؤية سلسلة متصلة بدلًا من القطيعة بين التاريخانية والتنوير. وعلى الرغم من خطر الظهور كمُعكِّرِ صفوٍ أو صاحب موضة قديمة؛ فإنني أودُّ أن أتساءل عمّا إذا كان هؤلاء الباحثون قد تقدّموا بالنقاش على الإطلاق. لقد انتقدوا مينيكيه لأجل نقطة لم يشكَّ فيها، فقد بذل الكثير في الواقع كي يُثبت أن التاريخانية لها جذورها في تقليد التأريخ في عصر التنوير. لقد تجاهلوا أيضًا شهادة التاريخانيين، الذين أظهروا التعارُض بأنفسهم بين مذاهبهم وعصر التنوير. وفي حين أن وجهات نظرهم ليست معصومةً بالضرورة، إلا أنها تُظهر أن هذا التعارُض ليس منطويًا على مفارقة تاريخية. وأخيرًا، لقد خلطوا أيضًا بين أمور التاريخ والمنطق: بحيث إنه إذا كانت التاريخانية قد نشأت من تقليد عصر التنوير،

---

(١٧) انظر على سبيل المثال:

Reill, The German Enlightenment and the Rise of Historicism, 2–3; Friedrich Jaeger and Jörn Rüsen, Geschichte des Historismus (Munich: Beck, 1992), 10–11; and Herbert Schnädelbach, Geschichtsphilosophie nach Hegel (Freiburg: Alber, 1974), 27–8.

فإنه ينبغي أن تقبل القيم والمبادئ الأساسية للتنوير. وثمة أدلة قاطعة على أنَّ التاريخانيين المبرزين قد قطعوا، صراحةً وبوعيٍ ذاتي؛ مع بعض المبادئ الأساسية للتنوير.

بما أن الأهمية التاريخية والفلسفية للتاريخيانية ترتكز على قطيعتها مع التنوير، وبما أن الدراسات الأخيرة قد أهملت أو عارضت تلك القطيعة؛ فمن الجدير أن نفحصها ببعض التفاصيل. دعونا ننظر في مقولتين أساسيتين حول الإيمان في عصر التنوير، ونرى كيف شكَّكت فيهما التاريخانية صراحةً أو قوضتهما ضمنيًّا.

كانت إحدى مقولات الإيمان الأساسية في عصر التنوير هي إيمانها بالقانون الطبيعي، أي: أن هناك معاييرَ أخلاقية كلية تنطبق على جميع الثقافات والعصور. وقد اعتبرت هذه المعايير «طبيعية» لأنها تستند إلى طبيعة بشرية كلية، أو إلى غايات الطبيعة نفسها، ولأنها لا ترتكز على القوانين الوضعية والتقاليد المؤسَّسة في دولة معينة. ومن ثَمَّ يفترض القانون الطبيعي أنه لم يكن هناك فقط طبيعة بشرية موحّدة خلال سيرورة التاريخ، ولكن أيضًا كان هناك عقل بشريٌّ كليٌّ يؤيد القيمَ الأخلاقية نفسَها لكل العصور والثقافات.

من المعلوم أن كبار التاريخانيين في القرن التاسع عشر - رانكي ودرويسين ودلتهي وبوركهارت وسافيني - رفضوا بصراحة وبوعي ذاتي تقليدَ القانون الطبيعي. كانوا يعتقدون أن ذلك التقليد قد عمَّم بصورة غير شرعية قيمَ أوروبا في القرن الثامن عشر كما لو كانت لجميع العصور والثقافات، وأنه شرَّع القيمَ الأخلاقية والسياسية بشكل غير شرعيٍّ لجميع الثقافات، بغضِّ النظر عن ظروفها الخاصة وتقاليدها وأساليبها للحياة. وقالوا إنه لكي تَعْلَمَ قيمَ ثقافة أو حقبة ما؛ فمن الضروري دراستها من الداخل، لفحص كيف تطورت هذه القيم من تاريخها وظروفها؛ فإنه من المستحيل الحكم على ما يجبُ أن يكونَ قيمةً من وجهة نظر خارجية، كما لو أن هناك مجموعةً واحدة من القيم لجميع الشعوب بغضِّ النظر عن الظروف والتقاليد. وكلما درسنا القيمَ بشكل تاريخي؛ رأينا أن غرضها ومعناها يعتمد كليًّا على سياقها المحدد، وعلى دورها الدقيق في المجموع الاجتماعي-التاريخي، كما جادل التاريخانيون. وبما أنَّ السياقاتِ فريدةٌ وغير قابلة للمقارنة؛ فكذلك القيمُ الموجودة فيها، ومن ثَمَّ يصبح من المستحيل إجراء تعميماتٍ حول القيم التي يجب أن يتمتَّع بها الجميع بغضِّ النظر عن السياق الاجتماعي والتاريخي.

هناك مقولة أخرى أساسية في إيمان عصر التنوير، وهي إيمانه بقيمة النقد، أي إننا يجب أن نفحص جميع معتقداتنا وفقًا للعقل، وأن نقبلها أو نرفضها بدقَّة وفقًا للأدلة المقدمة عليها. ومن ثَمَّ جعل التنويرُ التفكيرَ في نفسه، والاستقلالَ الفكري؛ من فضائله الفكرية الأساسية.

وقبل الثورة الفرنسية بوقتٍ طويل بدأ بعضُ المفكرين الأوائل في التقاليد التاريخانية يشكِّكون في مطالبة التنوير بالإيمان العقلاني. فعلى سبيل المثال، تساءل هيردير Herder وميسير Möser عمّا إذا كانت المطالبة بالنقد الراديكالي قد أخطأت الهدف ببساطة. فعلى الرغم من أن العديد من معتقداتنا ربما تكون بمثابة تحيُّزاتٍ عندما تُفحَص بدقَّة وفقًا للأدلة المقدَّمة عليها؛ فإنها تبقى ضروريةً للحياة والعمل. لقد كانت مهمةً ليس فقط لتحفيز الفرد، ولكن أيضًا لخلق التضامن الاجتماعي والاستقرار السياسي. واقترحوا أنه لا ينبغي لنا أن نقيِّمَ معتقداتِنا إلى حدٍّ كبير وفقًا للأدلة، بل بالأحرى وفقًا للدور الذي تلعبه في الحياة الأخلاقية والسياسية. ومن ثَمَّ لاحظ الشاب هيردير أن العديد من معتقداتنا، على الرغم من أنها قد تكون خيالية؛ فإنها لا تزال ضروريةً لجعل الناس سعداء، ولمنح حياتهم الاتساقَ والمعنى[18]. وكان ميسير مقتنعًا بأن الوهم أمر حيويٌّ لنسيج الحياة الاجتماعية والسياسية. كان يعتقد أنه من الجيد أننا استخدمنا عقلَنا لنرى هذه الأوهام، ولكنه أصرَّ على أنه لا يوجد سببٌ لرفْضِها. لقد كتب مرة: «إن الإنجليز يميِّزون مَلِكَهم عن البشر العاديين، ويخلعون عليه أعظم الفخامة، إلا أنهم يعلمون جيدًا أنه إنسانٌ مثلُ أي إنسان آخر»[19]. ما قاله هيردير وميسير في القرن الثامن عشر سيصبح في نهاية المطاف مهيمنًا على التقاليد التاريخانية.

4 - مشكلة النسبوية:

أصبحت «التاريخانيَّة»، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، مصطلَحًا يُساء استعمالُه؛ لأنه كان مساويًا في كثيرٍ من الأحيان للنسبوية، أي إن المذهب الذي يقول إنه ليس للقيم الأخلاقية والسياسية صلاحيةٌ كلية، ولكنها صالحةٌ فقط للعصر والثقافة المعيّنة التي نشأت فيها. اكتسب المصطلحُ هذه الدلالاتِ بصورةٍ أساسيةٍ بين معارضي التاريخانيين، وبخاصةٍ هوسرل والكانطيون الجدد وفيندلباند Windelband وريكيرت Rickert [٢٠]. ومن

(18) Herder, Auch eine Philosophie der Geschichte der Menschheit, in Sämtliche Werke, ed. Bernard Suphan (Berlin: Weidmann, 1891), v. 510.

(19) Möser, 'Wer die Kunst verstand, verriet den Meister nicht', in Sämtliche Werke: Historisch-kritische Ausgabe, ed. Akademie der Wissenschaften zu Göttingen (Osnabrück: Wenner, 1944–95), x. 204–5.

(٢٠) انظر على سبيل المثال:

Husserl, 'Philosophie als strenge Wissenschaft', Logos I (1910/11), 323; and Windelband, 'Kritische oder Genetische Methode?', in Präludien: Aufsätze und Reden zur Philosophie und ihrer Geschichte (Tübingen: Mohr, 1921), ii. 132; and Rickert, Die Probleme der Geschichtsphilosophie (Heidelberg: Carl Winter, 1924), 129.

الجدير بالذكر أنَّه مع ذلك ليس هناك تاريخانيٌّ يعتبر نفسَه نسبويًّا، وكان جميعُهم حريصين على تجنُّب أيِّ اتهامٍ من هذا القبيل. يبحث المرءُ عبثًا عن النسبوية في صفوف التاريخانيين، على الرغم من الخطاب المحذّر الذي يتوقّع المرءُ بسببه أن نسبوية التاريخانيين تتربصُ به في كل زاوية في الطريق.

إن مساواة التاريخانية بالنسبوية أمرٌ مفهوم في ظاهره. بدا الأمر لازِمًا صريحًا لبعض الاعتقادات التاريخانية الشائعة. أحد هذه الاعتقادات هو الرفض التاريخاني لتقاليد القانون الطبيعي، والإصرار على أن المرءَ يحدد قوانين الدولة وسياساتها بناءً على ظروفها وتقاليدها المعيَّنة. لقد جادل التاريخانيون بأنه لا يمكن تحديدُ هذه القوانين والسياسات من الخارج وَفْقَ بعض وجهات النظر التاريخية المتعالية، ولكن فقط من الداخل، وَفْقَ الظروف والتاريخ المحلي. ونظرًا لاختلاف الظروف والتواريخ، فإنّه يتعيَّن على التاريخانيين أن يقبلوا قوانينَ وسياساتٍ مختلفة، بل ومتضاربة، لدولٍ مختلفة.

ومع ذلك، فإنَّه من المشكوك فيه أن هذا الاعتقاد يستلزِم النسبوية الكاملة. فعلى الرغم من أن القوانين والسياسات المعيَّنة سوف تختلف؛ فإنها قد تكون اختلافاتٍ وفق مبادئَ أكثرَ عموميةً. وقد كان هذا حقًّا موقفَ العديد من التاريخانيين، مثل: هيردر وريهبرغ وديلتهي ودرويسن وبوركهاردت، الذي واصلوا الإيمان بالمبادئ الأخلاقية الكلية ووحدة الطبيعة البشرية، على الرغم من تأكيدهم على التغيُّر والاختلاف التاريخي. ومن المهم أيضًا ملاحظة المغزى الدقيق لنقدهم لتقاليد القانون الطبيعي. فلم يكن نقد التاريخاني لتقاليد القانون الطبيعي رفضًا لمبادئ كلية على هذا النحو، بل فقط على تطبيقها الأعمى والدوغمائي. ففي حين أكّد التاريخانيون على صحَّة المبادئ الكلية؛ فقد أصروا على وجوب تطبيقها بطريقة مختلفة على الظروف المختلفة، فقد اتخذت المبادئ العامة أشكالًا مختلفةً وفقَ التقاليد والثقافات المحلية.

كان هناك موضوع تاريخانيٌّ آخر بدا أنه يستلزم النسبوية، وهو نقد التاريخانية للتأريخ البرجماتي للتنوير. سيدرس التأريخ البرجماتي الماضيَ من أجل التعليم الأخلاقي، ولذا فهو ملتزم بإصدار أحكامٍ أخلاقية على الأفعال والثقافات في الماضي. رفض التاريخانيون التأريخَ البرجماتي لأنه حكمٌ على الماضي وفق معايير الحاضر، وهو ما كان يمثِّل جريمةَ «التمركُز العِرْقي»، أي افتراض أن قيمَ ثقافةِ الفرد صالحةٌ لجميع الآخرين. وحين كان المؤرخون البرجماتيون يدعون للحكم على الماضي وفق معايير عقلٍ كليّ؛ فقد كانوا يحكمون وفقَ تحيُّزات وأعراف خاصة

بعصرهم، وقد كانت مبادئهم «الطبيعية» أو الكلية في الحقيقة مجرَّد تعميمٍ غير مشروعٍ لقِيم ثقافتهم التي كانت في أوروبا في القرن الثامن عشر. كانت الحالة النموذجية لهذه المغالَطة بالنسبة إلى التاريخانيين هي حُكم فولتير على العصور الوسطى في كتابه: قرن لويس الرابع عشر، الذي أدان فيه الرهبان والقسيسين لأنه لم يكن لديهم قيم الحكَّام الفرنسيين وآراؤهم في أواخر القرن السابع عشر.

وهنا من المشكوك فيه أيضًا أن هذا الموضوع التاريخاني يستلزم نسبويةً جذرية. فلا يحتاج المؤرخ التاريخاني إلى الادعاء بأن جميع الأحكام الصادرة على الماضي هي من قبيل التمركز العرقي، ولكن فقط بعضها، وأن علينا أن نكون حذرين في ملاحظة الاختلاف. إن مبدأ أنه يجب ألّا نحكم على الماضي من خلال الحاضر، هو في الواقع مبدأ أخلاقيٌّ في حدِّ ذاته. عُرضت هذه القضية بشكل جيد في محاضرة متأخرة قدَّمها المسنُّ رانكي Ranke. ففي حين أصرَّ رانكي على أن المؤرخ يجب أن يحاول أن يكون موضوعيًّا وحياديًّا، وأن يترفَّع عن كل الخصومات الحزبية، فقد اعترف بسهولة أن المؤرخ لديه مبدأ أخلاقي يسعى إليه بكل وسعه: محاولة تحقيق العدالة تجاه كل الكيانات الدينية والأخلاقية[٢١].

يبقى السؤال مع ذلك: كيف يمكن للتاريخانيين تسويغ مبادئهم الأخلاقية؟ فإنه من المسلَّم به أنهم أرادوا التأكيد على صحّتها الكلية، فكيف يمكنهم الدفاع عنها، ولا سيما في وجه التغيير التاريخي وتقلباته؟ لقد تعثّرت التاريخانية في هذا الشأن بالتحديد. فبعد أن رفضوا تقليد القانون الطبيعي؛ أصبحت الكرةُ الآن في ملعب التاريخانيين، فالأمر متروك لهم لوضع تسويغ بديلٍ لمبادئ الأخلاق. إلا أن القليلَ منهم أجاب على هذا السؤال مباشرة. يجب أن نتذكَّر أن معظم التاريخانيين كانوا يمارسون التاريخ أكثر من الفلسفة. لقد اقتصرت اهتماماتهم الفلسفية إلى حدٍّ كبير على مشاكل المعرفة التاريخية، ولم يكرسوا سوى القليل من الاهتمام للأخلاق على هذا النحو. بدا اهتمامهم بالمبادئ الأخلاقية، في معظمه؛ راسخًا في إيمانهم بطابع إنسانيٍّ ثابت وموحد، ولكن من الصعب أن نرى كيف يمكن أن يكون هذا المفهوم أكثرَ من مجرد تجريد فارغ بعد أن يطرح المرءُ جميع الاختلافات الملموسة بين البشر في التاريخ. لم يكونوا مستعدين لقَبول حلٍّ هيجل للمشكلة: أن جميع الحقب المختلفة من

(٢١) انظر:
'Einleitung zu einer Vorlesung über Neuere Geschichte', 1859–1861, in Aus Werk und Nachlass, iv. 295.

تاريخ العالم هي محاولات لتحقيق هدفٍ كليٍّ واحد. لقد رفضوا هذا الحل باعتباره نظريًّا للغاية. ونظرًا لأنهم أصروا على ضرورة معايير الإثبات التجريبية، فقد شكّكوا في إمكانية العثور على أدلة كافية لتعيين قوانين تاريخ العالم. فماذا تبقّى إذن؟ لقد كان لدى رانكي ودرويسين إجابة، على الرغم من أنهما اعترفا أنها إجابة شخصية: الإيمان المسيحي[٢٢]. فقد أكّد كلاهما اعتقادَه في العناية الإلهية، أن الله يوجِّه التاريخ من أجل الخير، على الرغم من أنّ كل ما لدينا على الإطلاق هو مجرد لمحات عن طرقُه الخفية. إلا أنه من المحتمل أن تُرضي إجابتُهم المؤمنين المسيحيين فقط. أما بالنسبة إلى أيِّ شخص آخر فقد ترك التاريخانيون فراغًا أخلاقيًّا، ومشكلةً بلا حل. فعلى الرغم من أنّهم لم يكونوا مُدانين بالنسبوية، فإنه لم يكن لديهم أيُّ تفسيرٍ لكيفية دمج الإيمان بأخلاقٍ كلية مع مبادئهم العامة.

كان التاريخاني الأكثر اضطرابًا تجاه مشكلة النسبوية هو الأكثر فلسفةً بينهم: ديلتهي. لقد جعل هذه المشكلةَ الموضوع الأساسيَّ لمسوَّدته المتأخرة: الوعي التاريخاني والرؤية الكونية Das geschichtliche Bewusstsein und die Weltanschauung [23]. كانت مهمة المسوَّدة حل «التناقض بين ادعاء رؤية كونية كلية للصواب وبين الوعي التاريخي». المشكلة كما صاغها ديلتهي هي أن كل ميتافيزيقا أو رؤية كونية تدعي الصوابَ الكليَّ فإنها تحاوِل أن تحُلَّ بطريقةٍ منهجية من خلال العقلِ «لغزَ الحياة أو العالم». إلا أنّ «الوعي التاريخي» يدل على أن كل رؤية كونية هي نتاج ظروف تاريخية محددة. وذلك يوحي بأن صلاحيتها محدودة أيضًا وفق هذه الظروف. «فما هو مشروطٌ بالعلاقات التاريخية هو أيضًا نسبيٌّ في صحته»[24]. وهذا يعني أن صلاحية هذا النظام الميتافيزيقي نسبية وعابرة وقابلة للفساد[25]. كيف يمكن الهروبُ من هذا التناقُض؟ اقتراح ديلتهي كان في حلِّه في نطاق الوعي التاريخي. إذا كان التاريخ سببَ الجرح، فهو الذي سيشفيه[26]. وأضاف أنه كلّما درسنا أنواعًا مختلفةً من الرؤيات الكونية؛ رأينا أن كل رؤية منها تعبّر

---

(٢٢) انظر عمل رانكي:

'Idee der Universalhistorie', Aus Werk und Nachlass, iv. 77, 83; and Droysen's early essay 'Theologie der Geschichte', in Historik, 369–85.

(23) Gesammelte Schriften, viii. 3–71.

(24) Gesammelte Schriften, viii. 6.

(25) Ibid. viii. 12.

(26) Ibid. viii. 10, 12, 222.

عن الحياة نفسِها في ظروف مختلفة. كل رؤيةٍ منها صحيحةٌ لأنها ترى جانبًا واحدًا من الكون، إنه منظورٌ واحدٌ مسلَّط على الكون، إلا أنه منظورٌ أحادي الجانب، ويجب أن يستكمله الآخرون للحصول على الحقيقة كاملةً[27]. فلا يوجد أيُّ تناقُض بينها، ما دمنا ندرك أنّ كلًّا منها صالح فقط من منظوره.

كان حلُّ ديلتهي إشكاليًّا بقدر ما كان بسيطًا. فمن خلال منح كل رؤية كونيةٍ صلاحيةً نسبيةً فقط من خلال منظورها التاريخي؛ فقد تخلّي ديلتهي بوضوحٍ عن المطالبة بالصلاحية العالمية التي كان يقصد الحِفاظَ عليها. كان هذا الجانب من تاريخانيته بالتحديد هو هدف نقد الكانطيين الجدد. جادل بيس ديلتهي Pace Dilthey وفيندلباند وريكيرت أن الطريقة الوحيدة لتجنُّب مثل هذه النسبوية هو ترك المجال التاريخي بالكامل والدخول في مجال التَّعالي [الترنسندنتالية][٢٨]. لقد أصروا على أنه من الضروري التمييز بين سؤالَيْن، وهو الأمر الذي كان مرتبكًا للغاية لدى ديلتهي. الأول هو سؤال الواقع quid facti، أو السؤال التاريخي، الذي يتعلق بأصلِ معرفتنا؛ والآخر هو سؤال الوجوب quid juris، أو السؤال النقدي المتعلِّق بصحَّة المعرفة. فعندما استنتج ديلتهي أن كل «ما هو مشروطٌ بالعلاقات التاريخية هو أيضًا نسبيٌّ في صحته» كان قد وقع في خطأ النتيجة الكاذبة [الخُلْف]، وذلك تحديدًا بالخلط بين هذين السؤالين. لقد قال ريكيرت وفيندلباند إننا حينما نتعامل مع مسألة الصحَّة فإننا لم نعد نتعلَّق بالتاريخ على الإطلاق، ولكننا متعلقون بمسائل الأدلة والعلاقات المنطقية البحتة. لقد قال ديلتهي ردًّا على هذه الانتقادات إن عالم التعالي [الترنسندنتالية] لدى الكانطيين الجدد كان أقنومًا خياليًّا، وأنّه من المستحيل التفريق بين السؤالين النقدي والتاريخي. كان الخلاف بين ديلتهي والكانطيين الجدد، الذي لا يمكن أن نستمرَّ فيه هاهنا؛ أحدَ أكثر الخلافات إثمارًا ومصيريّةً في تطوير فلسفة القرن العشرين في وقت مبكِّر[٢٩].

---

(27) Ibid. viii. 8, 12, 222.

(٢٨) انظر:

Windelband, 'Kritische und Genetische Methode?' and 'Normen und Naturgesetze', in Präludien, ii. 59–98, 99–135; and Rickert, Kulturwissenschaft und Naturwissenschaft (Tübingen: Mohr, 1921), 12–20.

(٢٩) حول مزيد من التفاصيل عن تلك المناقشة، انظر:

Michael Ermath, Wilhelm Dilthey: The Critique of Historical Reason (Chicago: University of Chicago Press, 1978), 186–97.

5 - أزمات التاريخانية:

في العقود الأولى من القرن العشرين بدأ الباحثون في ألمانيا يكتبون عن «أزمة التاريخانية». لقد وضعوا هذا المفهوم لشرح الانهيار المحيِّر للتاريخانية كحركة فكرية. كانت التاريخانية واحدةً من أقوى الحركات الفكرية في ألمانيا في القرن التاسع عشر. إلا أنه مع نهاية القرن بدا أنها قد استنفدت نفسها، وفقدتِ الثقةَ في نفسِها، وبعد الحرب العالمية الثانية كان الأمر بمثابة كتابة الكلمة الأخيرة على ضريحها. فماذا حدث؟ ما الذي أدى إلى انهيار إحدى أهم الحركات الفكرية المؤثرة في العصر الحديث؟ هناك العديد من السرديات لأزمة التاريخانية، ولأنها تختلف كثيرًا فمن الأدق التحدُّث عن «أزمات» التاريخانية، بصيغة الجمع. وكل ما يمكننا فعله هنا هو الإشارة إلى بعض هذه السرديات.

جاءت أزمة التاريخانية، وفقًا لنظرية شائعة[٣٠]؛ نتيجة للنسبوية الكامنة في المقاربة التاريخانية للقيم الإنسانية. فإنه إذا كانت القيمُ نتاجَ سياق اجتماعيٍّ وتاريخيٍّ محدد، وإذا كانت هذه السياقاتُ فرديَّةً وفريدةً وغير قابلة للتطبيق؛ فيبدو كما لو أنه لا توجد قيمٌ إنسانية كليّة، وكما لو أنه لا يمكن أن يكون للقيم أيُّ مُصَادَقَةٍ متعالية تتجاوَز سياقَها المباشر الخاص. ونظرًا لاعتبار التاريخانيّةِ نِسبويَّةً في نتائجها، فقد اعتُبِرت مصدرًا رئيسًا للعدمية، وهي الشعور بعدمِ معنى الحياة، الذي أصبح شائعًا لدى نيتشه.

وفقًا لنظرية أخرى، فإن لأزمة التاريخانية جذورًا في هجوم شوبنهاور ونيتشه على القيم والثقافة الكامنة وراء النزعة التاريخانية[٣١]. فعلى الرغم من أن نقد شوبنهاور لم يفعل أكثَر من مجرّد إعادة الاعتراض القديم على التاريخ كعِلْمٍ، فإنه كان لا يزال فعّالًا بسبب التأثير المتزايد لفلسفته بعد منتصف القرن[٣٢]. وفي حين أن عمل نيتشه أثارَ ردَّ فعلٍ قليلًا مباشِرا، إلا أنه أصبح أكثر تأثيرًا في الوقت والوزن بشكل كبير عند جيل ما بعد الحرب.

---

(٣٠) جاءت هذه السردية للأزمة من ترولتش Troeltsch. انظر كتابه:
'Die Krise des Historismus', Die neue Rundschau 33 (1922), 572–90. هذا المقال هو خلاصة لكتابه الهائل: Der Historismus und seine Probleme (Tübingen: Mohr, 1922).

(٣١) انظر: Schnädelbach, Philosophy in Germany, 62–4.

(٣٢) انظر: Schnädelbach, Philosophy in Germany, 60. أشار كلٌّ من ترولتش وديلتهي إلى تأثره بنقد شوبنهاور. انظر: Troeltsch, 'Krise', 583, and Dilthey, Das Wesen der Philosophie, in Gesammelte Schriften, v. 371/

وفقًا لنظرية أخرى[٣٣]، بدأت أزمة التاريخانية في تسعينيّات القرن التاسع عشر بنشر كارل لامبريخت Karl Lamprech كتابه: التاريخ الألماني Deutsche Geschichte (١٨٩١م)، الذي طوَّر فيه مفهومَ التاريخ القائم على العلوم الطبيعية. آمن لامبريخت أن التاريخ يجب أن يحدِّد القوانينَ العامة للسبب والنتيجة مثل العلوم الطبيعية. وشنَّ لامبريخت في دفاعه عن منهجه هجومًا على أساليب أهم المؤرخين في عصر الإمبراطورية الفيلهلمينية Wilhelmine (فريدريش ماينيكي Friedrich Meinecke، وماكس ديلبروك Max Delbrück، وأوتو هينتز Otto Hintze، وماكس لينز Max Lenz، وهيرمان أونكن Hermann Oncken، وجورج فون بلو Georg von Below)، الذين نشأوا في التقليد التاريخاني. وكانت النتيجة جدالًا حادًّا بين لامبريخت وبلو، الذي يسمَّى لامبريخت-ستريت Lamprecht-Streit، حول المنهج التاريخاني. في حين ألقى هذا النقاشُ نارًا أكثر مما ألقى من الضوء، وعلى الرغم من أنه بالتأكيد لم يُسقط الهيمنةَ التاريخانية، فإنه أجبر التاريخانيين على التفكير بمزيدٍ من النقد حول منهجهم. كان التأثير النهائي للنقاش هو محاولة فيندلباند وريكيرت صِياغةَ طرُقٍ للدراسة التاريخية والاختلافات بينها وبين العلوم الطبيعية[٣٤].

لا تزال هناك نظرية أخرى لأزمة التاريخانية تربطها بالانهيار في محاولات إيجاد المعنى، والبنية، والتقدم في التاريخ[٣٥]. جاء السبب الرئيس لهذا الانهيار في أعقاب الحرب العالمية، عبر الشعور العام واسع الانتشار بأن ملايينَ من الشباب قد ضحَّوا من أجل قضية ضائعة وليس لأجل سببٍ واضح. على الرغم من أن التاريخانيين كانوا يشكِّكون في أن الأبحاث التاريخية ستثبت يومًا ما ادعاءات التاريخ الكلّي، فإنها لم تفقد إيمانها بالتقدُّم والعناية. كان بعض كبار المؤرخين الألمان - ترولتش Troeltsch ومينيكيه Meinecke - من القوميين الليبراليين الذين آمنوا بقوةٍ بقيم دولة ألمانية مركزية قوية، الدولة التي يمكن أن توجّه التاريخَ على الطريق

---

(٣٣) انظر: Jaeger and Rüsen, Geschichte des Historismus, 141–6.

(٣٤) حول فيندلباند ووريكيرت، انظر:

Bambach, Heidegger, Dilthey and the Crisis of Historicism, 57–126; Iggers, German Conception of History, 147–59; and Jaeger and Rüsen, Geschichte des Historismus, 151–6.

(٣٥) انظر على سبيل المثال:

Bambach, Heidegger, Dilthey and the Crisis of Historicism, 1–20; Georg G. Iggers, The German Conception of History (Middletown, CN: Wesleyan University Press, 1968), 128–9; and Meinecke, 'Von der Krisis des Historismus', in Werke iv. 200–1.

نحـو المزيـد مـن الحريـة والمسـاواة والرفاهيـة. ومـع ذلـك، فقـد قـوَّض السـلوكُ الفعـلي للدولـة الألمانيـة في الحـرب إيمانَهـم تمامًـا. فبـدلاً مـن أن تقـودَ الأُمَّـةَ الألمانيـة نحـو مزيـد مـن الحريـة والسـعادة، ذبحـت الدولَـةُ الألمانيّـةُ جِيـلًا كامـلًا بسـبب قضيـة مفلسـة.

وفقًـا لنظريـة أخـيرة[36]، جـاءت الأزمـة التاريخانيـة مـن التناقُضـات الداخليـة الخاصـة بهـا، وبشـكلٍ أكـثر تحديـدًا مـن الـصراع بـين مثاليـة معرفتهـا الموضوعيـة وإيمانهـا بقـوى التكييـف القوية للتاريـخ. افـترض بعـض التاريخانيـين مِثـالًا مثاليًـا للمعرفـة الموضوعيـة، كـما لـو كان المـؤرخ قـادرًا عـلى الوقـوف بطريقـةٍ أو بأخـرى فـوقَ تدفُّـقِ التاريـخ، محـدِّدًا الحقيقـةَ البحتَـةَ المسـتقِلَّةَ عـن جميـعِ القِيَـمِ والأفـكَارِ المسـبقَةِ. ومـع ذلـك، فـإنّ التاريخانيّـةَ نفسَـها تُظهِـرُ أنَّ مثـل هـذه المعرفـةَ المثاليـة سـاذَجَةٌ تمامًـا. فالتعـارُضُ واضـحٌ إذن: إذا كانـت جميـعُ المواقـف الإنسـانية خاضعـةً للتكيُّف التاريخـي والثقـافي، فكيـف يكتُـبُ المـؤرِّخُ تاريخًـا موضوعيًّـا ونزيهًـا؟ فإنـه يجـب أن تخضـع وجهـة نظـره الخاصـة لظـروف ثقافتـه وعـصره، بحيـث يقـع المـؤرخ أيضًـا في شـبكة النسـبوية الخاصـة بـه.

أيٌّ مـن هـذه السرديـات هـو الصحيـح؟ كلُّهـا ولا شيء منهـا. كلهـا لأنهـا جميعًـا تشـير إلى مشـاكلَ حقيقيـةٍ في التقليـد التاريخـاني. ولا شيء منهـا لأنهـا لا يمكنهـا تفسـير اختفـاء التقليـد التاريخـاني. فـوراء كل سرديـة لأزمـة التاريخانيـة كان هنـاك افـتراض ضمنـيٌّ بـأن التاريخانيـة اختفـت بسـبب بعـض العيـوب المأسـاوية العميقـة أو بعـض التناقضـات المتأصلـة. ومـع ذلـك، فـإن هنـاك تفسـيرًا أبسـط بكثـير. هنـا نحتـاج فقـط إلى التذكـير بالمـشروع الأصـلي للتاريخانيـة: جَعْـل التاريـخِ علـمًا. حقَّـق التاريخانيـون نجاحًـا ملحوظًـا في محاولـة تحقيـق هـذا الهـدف. عـلى الأقـل جعلـوا التاريـخ مـادة أكاديميَّـةً معترفًـا بهـا وتـدرَّس في جميـع الجامعـات وتتمتَّـع بالمكانـة نفسِـها التـي تتمتَّـع بهـا العلـومُ الطبيعيـة. لا يحتـاج المتشـككون إلا إلى تقديـر الصعـود الملحـوظ للتاريـخ بمثابـة فـرع معـرفيّ أكاديمـي في ألمانيـا منـذ أن بـدأت الحركـة في منتصـف القـرن الثامـن عـشر[٣٧]. ومـن ثَـمَّ فـإنَّ سـبب زوالِ التاريخانيـة أمـرٌ بسـيط: لم تَعُـدِ التاريخانيـة بحاجـة إلى الوجـود بعـد الآن بعـد أن حقَّقـت مـا أنجزتْـه. ليسـت التاريخانيـة مشروعًـا فاشـلًا، ولكنهـا مـشروعٌ ناجـحٌ نجاحًـا مذهـلاً. ولأنـه لا يـزال يُمـارِسُ مِثْـلَ هـذا التأثـير الهائـل؛ فإنـه لم يمـتْ قـطُّ عـلى الإطـلاق.

---

(36) hus Iggers, German Conception of History, 124, 133, 141, 143.

(٣٧) حول تطور البنية المؤسسية للتاريخانية، انظر:

Konrad Jarausch, 'The Institutionalization of History in 18th-Century Germany', in Hans Erich Bödeker et al. (eds.), Aufklärung und Geschichte (Göttingen, Vandanhoeck & Ruprecht, 1986), 25–48.

6 - دراسة التاريخانية:

يجب على كلِّ من يبدأ دراسة التاريخيانية أن يكون حذرًا: إنه يدخل حقلَ ألغامٍ فكريًّا. تشكِّلُ كلمةُ «تاريخانية» نفسُها مخاطرَ. إحدى هذه المخاطر هي المفارقة التاريخية. فقد أصبحت «التاريخانيةُ» شائِعةً كمصطلح تأريخي يشير إلى تقليدٍ فكري معيّنٍ في ثلاثينيات القرن العشرين فقط بعد نشر كتاب فريدريش مينيكيه: ظهور التاريخانية Die Entstehung des Historismus. مقتفيًا ريادة ديلتهي[٣٨]؛ تتبَّع مينيكيه أصولَ التاريخانية لدى كُتَّابِ القرن الثامنَ عشر مثل مونتسكيو وهيردر، وموسير، وجوته. لقد رأى قِمَّة التقليد التاريخاني في معلِّمه ليوبولد فون رانك. إلا أنّه تجدُر الإشارةُ إلى أنَّ أيًّا من هؤلاء المفكّرين لم يُشِرْ إلى نفسه كتاريخاني، ومن المحتمل أن القليل منهم سمعوا الكلمة. عندما أطلق أحد منتقدي ديلتهي عليه لقبَ «تاريخاني»؛ رفض التسمية بصراحةٍ، بسبب ارتباطاتها النِّسبوية والعدمية[٣٩].

الخطر الآخر وراء مصطلح «التاريخانية هو أنها اكتسبت معانيَ متعارضة؛ لأنها استُخدمت للإشارة إلى وجهات نظرٍ مُتعارِضةٍ تمامًا للتاريخ. فوفقًا لوجهة نظر، فإن الغرضَ من التاريخ هو معرفة القوانين العامة أو غايات التاريخ، والهدف من التاريخ هو إيجاد النظام أو الوحدة وراء فوضى الماضي. ووفقًا لوجهة نظر أخرى، فإنَّ الغرض من التاريخ هو معرفة الفردية، وإثارة أعماق الفردانية والفرادة، من خلال البحث المفصَّلِ الدقيق، وهو الأمر الذي يرفُضُ إمكانيَّةَ اكتشاف القوانين العامة أو غايات التاريخ. ففي حين أن هذه القوانين أو الغايات قد تكون موجودة، إلا أنّه من المستحيل بالنسبة إلينا أن نعرفها من خلال البحث التجريبي. ظهرت وجهة النظر الأولى لدى هيردر في وقتٍ متأخر والمثاليِّين الألمان، الذين طوروا فلسفَةً منهجيَّةً للتاريخ، في حين ظهرت وجهة النظر الأخرى لدى رانكي ودرويسين وديلتهي وبوركهارت، الذين رفضوا إمكانيَّةَ وجودِ فلسفةٍ منهجيَّةٍ للتاريخ، والذين أكَّدوا على أهمية الفردية التاريخية. وقد سُميت كلتا وجهتي النظر بـ «التاريخانية»؛ لأنهما تؤكِّدان على أهمية التاريخ لفهم الحياة والفعل البشريين، ولأنهما تدعوان إلى أن أساليب المعرفة التاريخية ومعاييرها تختلف عن تلك الموجودة في العلوم الطبيعية.

---

(٣٨) انظر:

Dilthey, 'Das Achtzehnte Jahrhundert und die Geschichtliche Welt', in Gesammelte Schriften, iii. 209–68. Dilthey did not use the term 'historicism'.

(٣٩) انظر:

Walter Biemel, 'Der Briefwechsel Dilthey-Husserl', Man and World 1 (1968), 434.

وعلى الرغم من مبادئها المشتركة، فإن هذه التقاليد كانت في كثيرٍ من الأحيان على خلافٍ مع بعضها البعض. ومن هنا كان درويسين ورانكي وديلتهي وبوركهاردت مُعَادِين بشدَّةٍ لفلسفة فيشته وهيجل للتاريخ، التي ادعوا أنها اضْطَرَّتْ ثراءَ التاريخ وتفاصيله إلى مضيقٍ مفاهيمي.

يعكس تاريخُ كلمة «تاريخانية» «historicism-Historismus»، أي الخطوطُ العريضة التي أمكنَ سردُها هنا فقط؛ بعضًا مِن هذه الالتباسات[٤٠]. فالادِّعاءُ الشائع أنها كانت تحمل مَعْنًى تحقيريًّا في أول الأمر غيرُ صحيح. يظهر المصطلحُ في وقت مبكِّر في أواخر القرن الثامن عشر في كتابات الرومانسيين الألمان، حيث استخدموه بمعنًى محايد. واستخدم فريدريش شليغل عام (١٧٩٧م) «التاريخانية» للإشارة إلى فلسفةٍ تركِّز على أهمية التاريخ. وبعد ذلك بفترة وجيزة ظهر الاستخدام نفسُه في دفاتر نوفاليس Novalis [41]. بدأ استخدام المصطلح على نطاق أوسع بحلول منتصف القرن التاسع عشر في أعقاب الهيجلية. من الجدير بالذكر أنه بالفعل بحلول ذلك الوقت كانت الكلمةُ تُستَخْدم في كلتا الحالتين المذكورتيْن أعلاه. ومن ثَمَّ فقد دافع سي جي برانيس C. J. Braniss عام (١٨٤٧م) عن «تاريخانية» تحاول اكتشافَ القوانينِ العامّةِ للتاريخ. لقد قارن بين «التاريخانية» و«الطبيعانية»، فبينما تحاول الطبيعانيةُ أن تشرحَ الواقع كلَّه، بما في ذلك التاريخ، وفقًا للقوانين الطبيعية؛ تحاول التاريخانية أن تشرحَ الواقعَ كلَّه، بما في ذلك الطبيعة، وفقًا للقوانين التاريخيَّة[42]. ومع ذلك، فقد كتب كارل برانتل Carl Prantl عن «تاريخانية حقيقيّة» تعترف بالفردانية التاريخية الملموسة، وتعارض فلسفةَ التاريخ النظريّةَ التي تحاول صياغة قوانين عامة[43]. بحلول منتصف القرن كان الاستخدام الأكثر شيوعًا لهذا المصطلح هو

(٤٠) حول الاستخدام المبكِّر لهذا المصطلح، راجع مقاله في:

Historisches Wörterbuch der Philosophie (Stuttgart: Schwabe & Co., 1974), iii. 1141–7; Erich Rothacker, 'Historismus', in Schmollers Jahrbuch 62 (1938), 388–99, and 'Das Wort 'Historismus'', Zeitschrift für deutsche Wortforschung 16 (1960), 3–6; and the article 'Historicism' in Dictionary of the History of Ideas (New York: Scribner, 1973), ii. 456–64.

(٤١) انظر:

Friedrich Schlegel, Fragmente zur Poesie und Literatur, Kritische Ausgabe, ed. Hans Eichner (Paderborn: Schöningh, 1981), XVIII, 91, 481; and Novalis, Das Allgemeine Brouillon #927, in Werke, Tagebücher und Briefe, ed. Hans-Jachim Mähl and Richard Samuel (Munich: Hanser, 1978), ii. 688.

(42) Christian Johann Braniss, Die wissenschaftliche Aufgabe der Gegenwart als leitende Idee im akademischen Studium (Breslau: Gosohorsky,1848), 113–38.

(43) Carl Prantl, Die gegenwärtige Aufgabe der Philosophie (Munich: Akademie der Wissenschaften, 1852), 19, 31, 38.

الإشارة إلى منهجيات المدارس التاريخية للقانون. اكتسب المصطلح مغزاه الازدرائي فقط في نهاية القرن، فقد وصف اثنان من الاقتصاديين السياسيين، كارل مينجر Carl Menger وإيجين دورينغ Eugen Dühring، «التاريخانية» بأنها إهمال مُفْرِطٌ في النظرية من أجل التاريخ. فقط بعد الحرب العالمية الأولى أصبحت «التاريخانية» مفهومًا مثيرًا للجدل ومُناقَشًا على نطاق واسع. كان إرنست ترويلتش Ernst Troeltsch هو الذي جعل المصطلح سيئَ السمعة عن طريق الكتابة عن «أزمة التاريخانية»[٤٤]. لقد عرَّف التاريخانية على أنها «إضفاء طابَعٍ تاريخيٍّ على كامل معرفتنا وتجربتنا للعالم الروحي، كما حدث في غضون القرن التاسع عشر»[45]. لاحظ كارل هويسي Karl Heussi، عام (١٩٣٢م)؛ ثلاثةَ معانٍ مختلفة لمصطلح «التاريخانية» الشائعِ في الخطاب الفكري الألماني: (١) الدراسة المتخصصة للتاريخ في حد ذاته، بغضِّ النظر عن الاحتياجات العملية؛ (٢) أيَّة محاولَةٍ لأخذ التاريخ إلى أبعد من حدوده المناسبة في المجال العام للخطاب الفكري؛ (٣) معنى تاريخي مُحايد يشير إلى حركة فكرية محددة في القرن التاسع عشر[46]. وكان هذا المعنى الثالث هو المعنى الأكثر حيادية الذي ساد في النهاية، وما زال مستمرًّا حتى اليوم.

وبصرْفِ النَّظَرِ عن المزالق المحيطة بمصطلح «التاريخانية»، فإن هناك مشاكلَ خطيرة أخرى تواجه طالب التاريخانية. ليس أقلَّها أنَّ الموضوعَ مثير للجدل. إن الخلافات كثيرة، لكن أهمها ذلك الذي يتعلَّق بمفهوم التاريخانية ذاته. ثمة تناقضٌ طويل الأمد يتمثَّل في الاستخدامات المتعارضة للمصطلح المذكور أعلاه. يعكِسُ التناقُضُ انقسِامًا ثقافيًّا ولُغويًّا، حيث إن المفهوم الأول للتاريخانية سائِدٌ في العالم الأنجلوفوني، والآخر في العالم الجرماني. وُضِع مَعْنى التاريخانية في العالَمِ الأنجلوفوني المعاصر إلى حدٍّ كبير بواسطة كتاب «فقر المذهب التاريخاني» لكارل بوبر. عرّف بوبر التاريخانية بأنها «منهج في العلوم الاجتماعية يُفْتَرَضُ أنَّ التنبُّؤَ التاريخي هو هدفه الرئيس، ويفترض أن هذا الهدف يمكن تحقيقُه من خلال اكتشاف «الإيقاعات» أو«الأنماط»، أو «القوانين»، أو«الاتجاهات»، التي تكمن وراء تطور التاريخ »[47]. ومُهاجِمًا أيَّةَ محاولة لتحديد قوانين أو اتجاهات للتاريخ؛ دعا بوبر إلى اتباع نهجٍ من شأنه أن يُعليَ من قيمةِ المفرد، والفريد، والخاص: «أود أن أدافع عن الرأي، الذي غالبًا ما يُهاجَمُ باعتباره

---

(٤٤) انظر المصادر في هامش رقم (٣٠) السابق.

(45) Troeltsch, ‘Krisis’, 573.

(46) Karl Heussi, Die Krisis des Historismus (Tübingen: Mohr, 1932), 6–15.

(47) Karl Popper, The Poverty of Historicism (London: Routledge & Kegan Paul, 1957), 3.

طرازًا قديمًا من قبل التاريخانيين، وهو أنَّ التاريخ يتميَّزُ باهتمامِه بالأحداث الفعلية والفردية والمحددة، وليس القوانين أو التعميمات»[48]. إن استخدام بوبر هو الذي جرى تكريسُه في القواميس، وحُفر في أذهان علماء الاجتماع الأنجلوفون[٤٩].

المشكلة الرئيسة في مفهوم بوبر للتاريخانية هي أنه ضيِّقٌ للغاية؛ حيث إنه ينطبِقُ على مرحلةٍ أو فرعٍ واحد فقط من التقاليد التاريخانية. فكما رأينا للتو، لقد استُخدام مصطلح «التاريخانية» أيضًا للإشارة إلى حركة فكرية تنتقد محاولة إنشاء قوانين عامة للتاريخ، وتؤكد على خصوصية الأحداث التاريخية. ومن المفارقات أن العديد من «التاريخانيين» التقليديين في القرن التاسع عشر كانوا سيرفضون ما أسماه بوبر بالتاريخانية، وكانوا سيفعلون ذلك على أسس بوبرية! بالنسبة إلى هذا التقليد، فإن مهاجمة بوبر اللاذعة لفلسفة التاريخ كانت بمثابة عبارة قديمة مُتعَبة [من فرط التكرار] في قصيدة أو أغنية. وبطبيعة الحال، فإن للسير كارل بوبر، مثل هامبتي دمبتي Humpty Dumpty، الحقَّ في جعل الكلمات تعني ما يريد أن يعنيه؛ لكنَّ هذه الطريقةَ البارونية التي استخدم بها هذا الامتياز، وتأثيره الهائل في العالم الناطق بالإنجليزية؛ لم تؤدِّ إلا إلى سوءِ الفهم. فبعد «دحض» بوبر للتاريخانية، اعتقد الناس أن تقليدًا آخر، يستخدم الاسمَ نفسَه لسوء الحظ؛ قد مات ودُفن.

لقد شُكِّل مفهومُ التاريخانية في العالم الجرماني إلى حدٍ كبير عبر كتاب مينيكيه: ظهور التاريخانية Die Entstehung des Historismus [٥٠]. حيث أعلن مينيكيه إعلانًا معروفًا أن التاريخانية «ليست أكثر من تطبيق مبادئ الحياة الجديدة، التي جرى اكتشافُها في الحركة الألمانية العظيمة من ليبنز إلى غوته، على الحياة التاريخية»[51]. كان هناك

---

(48) Ibid. 143.

(٤٩) انظر على سبيل المثال: تعريف «التاريخانية historicism» في:

The Oxford Concise Dictionary (Oxford: Clarendon Press, 1964), 472, and in the Oxford Dictionary of Philosophy (Oxford: Oxford University Press, 1994), 174.

(٥٠) انظر على سبيل المثال:

Jaeger and Rüsen, Geschichte des Historismus, 7–8; Schnädelbach, Geschichtsphilosophie, 19; and Iggers, German Conception of History, 3–28.

يحدُّ إيجيرز Iggers المصطلحَ في التقليد الفردي، على الرغم من أنه يدعي، على نحوٍ غير متَّسقٍ إلى حدٍّ ما؛ أن وحدة التقليد التاريخاني تستند في أصولها إلى المثالية الألمانية.

(51) Meinecke, Entstehung, 2.

مبدآن من هذا القبيل: الفردانية والتطور. يعني مبدأُ الفردانية أنه يجب دراسة الأحداث أو الأفعال أو الشخصيات التاريخية بكل خصوصياتها وفي حدِّ ذاتها. فوفقًا لتقليد رانكي Ranke، رأى مينيكيه أن التاريخ لا يختلف عن العلوم الطبيعية لأن هدفه المميز هو الإفراد والتمييز بين أحداثٍ وإجراءات وشخصيات معينة. ينصُّ مبدأ التطوُّر على أن جميع الأنشطة والمؤسسات الإنسانية تتغير وتتطور في التاريخ، وينبغي فهمها في إطار عملية التطوُّر. إلى جانب هذه المبادئ، غالبًا ما يشدِّد مينيكيه على الخاصية الثالثة للتاريخانية: اللاعقلانية. لقد وصف التاريخانية بأنها لاعقلانية لأن الفرد، وهو الهدف المحدد للتحقيق التاريخاني؛ يفوق الوصفَ [لا وصفي]. قال مينيكيه إن الشعار الأساسي للتاريخاني هو الفردانية التي لا توصف. ففي حين أن المؤرّخ سيحاول بالفعل وصفَ الفرد، إلا أنه يعترف أيضًا بأن أيًّا من أوصافِه لن تحيط به أبدًا، سيبقى هناك شيء للفرد من شأنه أن يكون بعيدًا عن التحليل والشرح. كان هذا المبدأ الثالث لمينيكيه ضمانًا للاستقلال التاريخي، واستقلال التاريخ عن الفلسفة والعلوم الطبيعية. إن لا وصفية الشخص تعني أن موضوع التاريخ فريدٌ من نوعه، وأنه لن يذوبَ أبدًا في مجموعة من المفاهيم الفلسفية أو القوانين الطبيعية.

ليس مفهوم مينيكيه للتاريخانية أقلَّ إشكالية من مفهوم بوبر. فلسببٍ واحد، فإن كلًّا من مفهومي الفردانية والتطور إمَّا غامض وإمَّا ملتبس. مفهوم الفردانية غامض: لأنه قد يكون خاصًا، لكنه قد يكون أيضًا كليًّا غير قابل للاختزال، حيث هناك العديدُ من التفاصيل والأجزاء. ويتنقَّلُ مينيكيه باستمرار بين هذه المعاني، إلى حد إرباك قرّائه، الذين يعتقدون أولاً أنّ موضوع التاريخ هو أفرادٌ بشريةٌ، فقط ليجدوا أنه أيضًا دول وثقافات وعصور. ومفهوم التطور ملتبس: فعندما اضطرَّ أخيرًا لتعريفه في سنواته الأخيرة؛ أضفى عليه مينيكيه نكهة هيجلية ملحوظة[٥٢]. لقد أوضح أن التطوّر هو أكثر من مجرد أعمال طوعية اختيارية من الوعي الذاتي للأفراد، كما أنه ينطوي على ميول التاريخ واتجاهاته ككل، والذي الأفرادُ هم فقط أجزاءٌ منه. التطوُّر هو في الواقع تحقيق «الروح الخاصة» للعصر. ولكن إذا كان هذا هو معنى

(٥٢) يوضح مينكيه استخدامه للمصطلح في مقالته المهمة:
'Ein Wort über geschichtliche Entwicklung', in Zur Theorie und Philosophie der Geschichte (Stuttgart: Koehler, 1965), 102–16.

التطـور؛ فليـس مـن الواضـح مـا إذا كان جميـع التاريخانيـين سـيثبتونه، حيـث أنكـر بعضهـم أن التاريـخ أكـثر مـن مجـرد تصرفـات أفـراد معينـين، ونفـى معظمهـم أنـه مـن الممكـن معرفـة التطـورات العامـة أو الميـول.

ثمَّـة نوعـان مـن الصعوبـات في مفهـوم مينيكيـه. أولًا، مـن الخطـأ وصـف التاريخانيـة بأنهـا لاعقلانيـة، سـواء قصـدًا أم ضمنيًّـا. لقـد أهمـل مينيكيـه محاولـةَ التقليـد التاريخـاني لتطويـر نمـاذج بديلـة مـن التفسـير عـن تلـك الخاصـة بالعلـوم الطبيعيـة، وتحديـدًا الـدورَ المركـزي للهرمانيوطيقـا [علـم التأويـل] في أعـمال بويـخ Boeckh ودرويسـن وديلتهـي. يحـاول التقليـد الهرمانيوطيقـي تجنُّـبَ المعضلـة بـين اللاعقلانيـة والتفسـير الطبيعـي مـن خـلال تشـكيل نمـوذجٍ آخـر للفهـم مـن تأويـل النصـوص. ثانيًـا، إن أطروحـة مينيكيـه المركزيـة، التـي تقـول إن التقليـد التاريخـاني هـو ببسـاطة تطبيـق مفاهيـم الحيـاة عـلى العـالم التاريخـي؛ هـي خطـأ. رفـض درويسـن وديلتهـي صراحـةً تطبيـقَ المفاهيـم العضويـة عـلى التاريـخ عـلى أسـاس أنـه لا يمكنهـا أن تفـسر مـا هـي السـمة المميـزة في التاريـخ. فاتِّباعًـا لهيجـل، أجريـا تفريقًـا حـادًّا بـين عـالم الحيـاة وعـالم التاريـخ. كان التاريـخ هـو عـالم الـروح، وهـو ليـس مجـرد الحيـاة بـل هـو الوعـي الـذاتي بالحيـاة. بالنسـبة إلى درويسـن وديلتهـي، فـإن العضويـة كانـت لا تـزال تنتمـي إلى مجـال الطبيعـة، والـذي لم يُعَـدَّ تاريخًـا بعـدُ. مـن السـهل للغايـة رؤيـة مصـدر أخطـاء مينيكيـه: لقـد جعـل رانـكي، معلِّمـه، نموذجًـا للتاريخانيـة. تنطبـق مبـادئ الفردانيـة والتطـور تمامًـا عـلى رانـكي، لكـن رانـكي لا يعـرِّف التاريخانيـة.

يجـب أن يكـون واضحًـا مـن هـذا المسـح الموجـز أن دراسـة التاريخانيـة هـي مهمَّـة محفوفـة بالمخاطـر. لقـد حاولـت أن أشـير إلى بعـض أسـوأ المزالـق. لكننـي آمـل أن يكـون واضحًـا أيضًـا أن دراسـة التاريخانيـة، في العـالم الجرمـاني والعـالم الأنجلوفـوني، مـا زالـت في بدايتهـا. إن التاريخ السـليم للتاريخانيـة، كـما يعـترف مينيكيـه نفسـه بسـهولة، لم يُكتـب قـطُّ. لذلـك، في نهايـة المطـاف، وعـلى الأقـل بالنسـبة إلى الطالـب الـذي جـرى إعـداده وتحذيـره بشـكل ملائـم؛ تقـدِّم دراسـةُ التاريخانيـة فرصًـا أكـثر مـن المزالـق.

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٩

All rights reserved © 2019